الثورة الأربعاء 15 ذو الحجه 1433 هـ - 31 اكتوبر 2012م العدد (17514)

فرنسية تروي مشاهد عايشتها في اليمن

الموالون للإمام أحمد يفتحون أبواب صنعاء ونهابون يتقاتلون على الغنائم

عمال النظافة سجناء تنزف أقدامهم من القيود

صنعاء إلى حد ما كثيرة الضجيج في النهار والليل، في النهار يتردد في المدينة هدير عجلات الرفع الخاصة بالآبار ونداءات المؤذنين للصلاة وفي المساء كنا غالباً ما نصحو من نومنا بسبب الأوامر التي يطلقها الحراس من أبراج الحراسة وبسبب نباح الكلاب وفي الضحى صوت البوق الحاد وهو يعلن بدء النهار.

هكذا وصفتها الكاتبة الفرنسية لوسيل فيفرييه ابنة الطبيب بيير فيفرييه الذي وصل إلى اليمن في منتصف عام ١٩٤٧م برفقة ولديه وابنته لوسيل التي كانت في سن السابعة عشرة من عمرها، توفي الطبيب قبل ثورة ٤٨ واستمرت الأسرة في صنعاء إلى ما بعد الثورة وقد ألفت لوسيل كتاباً بعنوان (أحداث عشتها في اليمن) وصفت فيه الحياة في اليمن وأحداثاً من ثورة ٤٨,

كتب/ زكريا حسان

مشاهد من صنعاء

تقول لوسيل :"كانت جولاتنا في صنعاء باتجاه الحديدة ممتعة والتضاريس جميلة وكانت ضواحي صنعاء قليلة الظلال لا توجد فيها زراعة وحدها قطعان الماعز والخراف ترعى فيها ويحرسها الأطفال والنساء المسنات، كنا نتجول في السوق ونستمتع بالحركة السائدة والألوان المتنوعة والحرفيات وجنباً إلى جانب السجائر وأعواد الثقاب والبترول والسكر والبلح والسمك المجفف القادم من الحديدة والأقمشة بالإضافة إلى الذباب.

وتضيف: أهم مفارس الخيل في اليمن كانت في منطقة رامس ويطلق على معظم الخيول الرمساء ورأس منطقة بين خمر وبراقش.

أما الحطب فيأتي من الجبال يحمله القبائل على ظهور الحمير وكان الطباخ يساومهم في السعر بشدة قبل الشراء وهم يمضغون القات وقد يستمر حديثهم لعدة ساعات، وتحكي عن مشهد آخر (يستخدم اليمنيون لتسخين الحمامات قوالب مسطحة تصنعها النساء من روث الجمال أو البشر من خلال صب الروث في حفرة تضاف إليه بعض القش المكسر والقليل من الماء ثم يدسنه حافيات الأقدام إلى أن يحصلن على خليط متجانس بعد ذلك يشكلنه إلى قوالب ويجففن تحت أشعة الشمس والمذهل قيام النساء في الوقت ذاته بالاعتناء بأطفالهن من دون غسل أيديهن ويقمن بمسح وجوه الأطفال بأطراف أثوابهن أو إعطائهم قطعة حلوى والمثير للدهشة أن هؤلاء الأطفال لا يبدون مرضى.. وعلى الأرجح أنهم اكتسبوا مناعة ضد ذلك.

حي اليهود

وتروي لوسيل في غرب بير العزب يوجد حي قاع اليهود ويعتبر إلى حد ما مكاناً معزولاً يتم الدخول إليه عبر بابين يغلقان من الساعة الثامنة مساءً وحتى الخامسة فجراً تدهشك نضارة وجوه الأطفال ومنظره النظيف والأنشطة السائدة فيه، أسواقه غنية جداً ومعظم المنتجات المحلية تصنع في هذا الحي ويعتبر يهود صنعاء أكثر تطوراً من معظم اليمنيين، ونسبة الأمية لديهم أقل ولا ترتدي النساء والفتيات اليهوديات الحجاب بل قبعة مزينة بقطع صغيرة من الزخارف المعدنية أما الملابس التي ترتديها النساء اليمنيات حين يخرجن للشارع فتجعلهن شبيهات بطائر البوم حيث يتغطين بتشكيلة كبيرة من القماش المبرقش يغلب عليه اللون الأحمر والأسود ويغطى الوجه حجاب أسود به دائرتان مصبوغتان باللون الأحمر أمام العينين وتحت القميص سروال واسع ومضغوط عند الكعبين أسفله مطرز بالألوان عند العامة وخيوط من الذهب والفضة عند الأميرات ونساء الوجهاء.

وتذكر أن السجناء المكبلين بالأغلال كانت مهمتهم تنظيف صنعاء وتساعدهم النسور على ذلك ومما يبعث الأسى رؤية هؤلاء التعساء غالباً متأثرين بجروح في الكعبين نتيجة لاحتكاك السلاسل بها.

أميرات القصر

تنقلت الكاتبة بين وصف الأماكن وسرد الأحداث وكان لقربها من أسرة الإمام يحيى تأثير كبير في معرفتها بمجريات الأمور كما ربطتها علاقة صداقة بالأميرات زوجات أبناء الإمام.

تقول فيفرييه: غالباً ما كنا أنا وأمي نزور حريم الأسرة المالكة بدافع المجاملة التي لا بد منها ويتم استقبالنا بحفاوة وكنا نفضل زيارة زوجة سيف الإسلام القاسم التركية بنت القاضي راغب بيه، وزير خارجية الإمام كانت أكبر جثة من اليمنيات هيئتها ومظهرها يبعثان على التفكير في لوحة من لوحات الرسام الفرنسي (انجرسي) كانت مرحة ونبيهة، تسخر بظرافة من غرائب بلدها الثاني.

أخبرتنا بأنها اكتشفت ذات يوم زوجها وهو في قصة غرامية مع امرأة في أحد غرف القصر فانتابها غضب جنوني ولاحقته في الممرات وهي تهدده بأنها ستضربه بالحذاء ولم ينج منها إلا عندما أغلق على نفسه الحمام حتى تهدأ، عرف الإمام يحيى بالحادثة وحرم سيف الإسلام من التنقل بالخيل وأعطاه حماراً.

تتذكر الكاتبة أنها رأت سيف الإسلام القاسم راكباً على الحمار وساقاه ملطختان على ظهرها الذي ينحني من ثقل القاسم وأقدامه تسحب على الأرض وهو يلبس نظارته الزرقاء الكبيرة وعمره في الأربعينيات.

عبرت الأميرات عن رغبتهن في زيارة منزل الكاتبة للتعرف على أسلوب حياة أسرتها فدعتهن إلى منزل وفي الموعد المحدد جئن على عربات مغطاة بستائر وسائق العربة الأولى يدق دون توقف جرساً لفتح الطريق.

أعجبت الأميرات بتحف الزينة والبار الصغير الذي صممه والد لوسيل وجلس كثير منهن فيه لتناول الشاي وكن يدخن السجائر وينفثن الدخان عالياً ويضحكن من أعماق قلوبهن، وكأنهن في أوروبا.

وحول أحداث ثورة ٤٨ وذكرياتها عنها تقول لوسيل فيفرييه أنه بعد ظهر الثلاثاء ١٧ فبراير ١٩٤٨م وصل أحد الأوروبيين إلى منزلهم يرتعش ويتلعثم وقال بصوت متقطع أن الإمام يحيى ورئيس الوزراء القاضي العمري قد اغتيلا وبعدها وصل العسكري المكلف بحراسة المنزل وقال: يمنع منعاً باتاً على الأوروبيين مغادرة منازلهم أو الخروج إلى الشارع.

خفت حركة السير وبدأت تشكل جماعات من الناس، جاءت الرواية الأكيدة أن الإمام يحيى خرج من القصر حوالي العاشرة صباحاً ليتنزه كعادته في ضواحي صنعاء فقاطعته شاحنة انطلق منها وابل من الرصاص فأصيب الإمام بـ٨ طلقات في الصدر وعبدالله قلاله بخمس طلقات وقتل حفيده الإمام سيف الإسلام الحسن ذو الستة أعوام والسائق والمرافقون وفرت الشاحنة وفي اليوم التالي أغلق السيد عبدالله الوزير على نفسه في قلعة القصر وأمر بتوزيع ٢٠ ريالاً على كل عسكري وقبل الظهر أعلن نفسه إماماً ولبس الزي التقليدي وما زال مغلقاً على نفسه لأسباب أمنية وفي المساء دفن الإمام يحيى على عجل بحضور بعض رجال القبائل ولم تحضر الشخصيات الرسمية وفي صباح يوم الخميس أعلنت إذاعة لندن خبر موت الإمام يحيى وفي العصر دوت مائة طلقة مدفعية بمناسبة إعلان الإمام الجديد بعد أن نودي في الجامع الكبير أن الوزير إمام جديد للبلاد.

تحكي فيفرييه أن الإشاعات كانت كثيرة ومتناقضة عن عدد القتلى من أبناء الإمام يحيى وعن ردة فعل الأمراء ووصول سيف الإسلام أحمد صنعاء، ومنذ مقتل الإمام وأبواب صنعاء مغلقة ما عدا باب اليمن يسمح منه للجنود الذاهبين إلى ثكنة العرضي بالخروج.

يوم السبت أعلن الامام الوزير من فوق قلعة القصر أن سيف الإسلام أحمد في حجة ولن يخرج منها في اليوم ذاته عين سيف الإسلام إبراهيم رئيساً للوزراء وحسين الكبسي وزيراً للخارجية، ويتوقع أن يكون الجيش المكلف باعتقال سيف الإسلام أحمد بقيادة المسن علي الوزير قد وصل حجة حاملاً ثلاثة مدافع والكثير من البنادق وصناديق الذخيرة.

وأصدر القائد العام جمال جميل أمراً يوم الاثنين ٢٤ فبراير أن أي شخص يمر بالشارع بعد غروب الشمس فإن الحراسة لن توقفه وإنما ستطلق عليه النار دون إنذار.

إخماد الثورة

جرت يوم الأربعاء معارك ضارية في منطقتي جربان وضروان الواقعتين بين الروضة وعمران انتصرت فيها قوات سيف الإسلام أحمد وفي المساء سمع تبادل إطلاق نار بين جنود صنعاء ورجال قبائل سقط فيها عشرة قتلى وعدد من الجرحى من قوات الإمام يحيى.

تؤكد الكاتبة أن أنصار سيف الإسلام كانوا يتزايدون باستمرار ويكسبون الميدان وقد أبلغ شيخ تهامة هادي هيج سيف الإسلام أحمد أنه سيضع تحت تصرفه كل رجاله وأمواله وسلاحه.

حجة سيف الإسلام أحمد كانت قوية بأنه يريد الاعتراف بالإمام الوزير لكنه أولاً يريد أن يعرف من قتل والده، هذه الحاجة أعاقت ممثلي دول الجامعة العربية التي كانت ملكية وتخشى الانقلابات أن تعترف بالإمام الوزير سيف الإسلام الحسن قص هدبة عمامته كدلالة على تدنيس الشرف بهدف تحفيز القبائل للثأر لوالده.

تشير لوسيل في شهادتها على الأحداث إلى أنه في يوم الأحد ٧ مارس بدأت قوات سيف الإسلام أحمد تظهر في شمال صنعاء وأخبار عن تواجد سيف الإسلام العباس في الروضة برفقة ألفي رجل وفي اليوم التالي أغلق باب اليمن واشتد حصار صنعاء وتواصل ضربها بالمدافع والبنادق واستولى القبائل على جبل نقم بعد معركة استمرت يومين يوم السبت ١٣ مارس حصل إطلاق نار كثيف وهجوم تمويهي من قبل قوات سيف الإسلام أحمد على جنوب المدينة بينما قام بعض مناصريه الموجودين بالداخل بفتح باب الشقاديف وإدخال جنود كانوا متجمعين حوله سقطت صنعاء بعد قرابة شهر من الحصار ودخلت القوات المنتصرة وأطلقت الرصاص ابتهاجاً طوال الليل.

نهب صنعاء

بعد ليلة صاخبة وانتصار بدأ القبائل صباح اليوم الثاني بنهب صنعاء تقول فيفرييه: كنا نرى بعض رجال القبائل محملين بالغنائم المنهوبة كان العسكريان التابعان لنا قد قاما بنهب غنائمهما من قاع اليهود وقدما لنا منها هدايا أرادت أمي أن ترفض لكن أحد أصدقائنا الأوروبيين نصحها بأخذها لأن رفضها سيكون بمثابة إساءة بحقهم.

وفي المساء صدر أمر للجنود القطاميين بالكف عن النهب وأعلن للقبائل بأن سيف الإسلام وصل الروضة في العصر ويجب الذهاب لاستقباله وبعد خروجهم أغلقت أبواب صنعاء، عاد القبائل محملين جمالهم وحميرهم بالمنهوبات ولاقى بعضهم من تخلف من القبائل في الطريق فنهبوهم.

وتضيف: قتل أحد النهابين تحت نوافذ منزلنا وظلت جثته عدة أيام أكلت الكلاب جزءاً منها وتعفنت رائحتها.

وفي ظل التنافس بين الأمراء تحكي الكاتبة أن سيف الإسلام الحسن أعطى لكل عسكري ستة ريالات وخصم منها ثلاثة بغرض استرداد العشرين الريال التي استلموها من الوزير وأخبرهم أن هذه تعليمات الإمام الجديد أحمد بغرض أن يجعلهم يتذمرون ويرحلون عن الإمام أحمد لكنه علم بالأمر وأمر بصرف اثني عشر ريالاً شهرياً لكل عسكري.

اعتقل الوزير وأعضاء حكومته وكل من ساندهم واعترف بهم وأعدموا في ميدان عام.

وتحكي: إن سائق السيارة التي اعترضت الإمام يحيى وقتل من كان على متنها وضع قبل إعدامه في قفص حديدي وكل من يمر بجواره يرميه بالأحجار.

طرائف

تورد لوسيل فيفرييه في كتابها (أحداث عشتها في اليمن) العديد من الطرائف منها أنه في الزيارة الوحيدة التي قامت بها الأميرات إلى منزلها صنعت أنواعاً من الحلوى والكريمات منها كريمة البن بالشوكلاتة وقدمته في أطباق فردية فحسبته إحدى الأميرات خضاباً ومررته على حواجبها ورموشها فأحرص أن يوضحن الأمر لها لكن الأميرة التركية زوجة سيف الإسلام القاسم تفهمت وبادرت إلى توضيحه وانفجر الجميع بالضحك.

وتضيف كان لأمي ثوب جرسي ضاق عليها فقررت أن تهديه للطباخ أحمد لكي يهديه لزوجته وتدخل السرور إلى قلبه لكننا تفاجأنا وهو يقدم لنا العشاء أنه لبسه وكان يمشي به بفخر.

ومن ذلك أنه عند وصول الدكتورة لانسوي مستشفى الإمام كان المرضى يفرون عند سماع طقطقات حذائها بالممر ويصابون بالحيرة عند رؤيتها بسترتها البيضاء مفكوكة الأزرار تعلو سروالاً وحذاءً (الفروسية) وتضع سيجار بين شفتيها.